دوافع الرفض عند الشاعر محمد بلخير

د. لخضر حشلافي جامعة الجلفة

نبذة عن حياة الشاعر:

تختلف الرواية في شأن مكان وتاريخ ميلاده، وهذا ليس غريبا في منطقة لم تعرف نظام الحالة المدنية آنذاك، إلا أن العامل المشرك بين جميع الذين أرّخوا أن المنطقة التي كانت موطنا لقبيلته هي الرزيقات قرب البيض والذي يعود إلى فخذ من أفخاذها السّبع [1] وهم من أولاد داود.

والرواية الأقرب إلى الحقيقة بشأن مكان وتاريخ مولده هي التي اتّفق حولها بعض[2] المقربين منه، حيث حدد مولده سنة 1822[3] بالواد المالح الواقع ما بين وهران وعين تموشنت قرب العامرية حاليا، هذا التاريخ يؤكده قول الشاعر وهي في سجنه بكالفي 1884:

محمد قال عليك من الشباب ولى شيباني بعد اثنين وستين مابقي ليا ما ينزاد

ومن المفروض أن يلد في مراعي الرزيقات حسب عادة البدو، لكن الظّروف الطبيعية القاهرة وبخاصة أنّ في السّنوات العجاف كانت القبائل ترحل نحو التّل، في طلب القوت والعمل في مواسم الحصاد، حيث يكثر الطّلب على الشوالة واللقاطة، هذا ما جعل عائلته تهجر المضارب إلى الشمال.

ومواطن الرزيقات تمتد ما بين جبال كسال بالأطلس الصحراوي وسى الناصر والغسول والطمار وهي البيئة السهبية التي تنتمي إليها قبائل الأغواط كسال المنحدرة من قبائل بني هلال وبني سليم فهم إذن عرب أقحاح .

ترعرع الشّاعر في هذا الوسط الّذي يتّصف أهله رغم قسوته بخصال وشمائل كثيرة، كالكرم والوفاء بالعهد وحبّ الحرية والصّبر على الشّدائد والذّود على الأرض والعرض، فأكسبته هذه البيئة الكثير من التجارب والخبرات التي يتمتع بها أهل منطقته مما نما من مداركه وصقل موهبته، وقد لازم من نعومة أظافره الطلاب والكتاتيب لحفظ القرآن الكريم، كما عاشر بعض الشعراء والمداحين والقوالين، وتأثر بهم فتفتحت قريحته الشعرية منذ أن تحركت فيه الأحاسيس والمشاعر الوجدانية، فتدفقت عواطفه سيلا من القوافي والكلام الموزون المعبر، تزوج وهو ابن العشرين من فاطمة بنت بوقفدة وأنجب منها عدة أطفال منهم لخضر وعبد القادر نسبة إلى سيدي الشّيخ:

سميت ولدي من عزّك بإمام عرباني في البيت عند مزراقك ماانكونش جاحدوا

و قد تزوج مرتين و أنجب بنتا تدعى فاطمة و ولد بن الأخضر و عبد القادر الذي توفي صغيرا قضى شاعرنا شبابه متنقلا بين المناطق السهبية و التلية و الصحراوية.

فقد زار منطقة تلمسان، مازونة، عين تموشنت و غيرها، و إنه لم يتعلم القراءة و لا الكتابة حيث يقول:

ما اقريت مع الطلبة ابن عشير ما شديت ابن خلدون في يدي

و لكن يبدو أنه دخل على الأقل الزاوية و ذلك يتجلى في بعض وقفاته الصوفية و تثنيته بشيخه " سيد الشيخ " و كانت الزاوية تعلم اللغة و الدين، و إلا فكيف علم بمتن ابن عشير و كتب ابن خلدون و تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم، حتى و إن لم يكن تعلما كاملا و شافيا إلا أنه قد أخذ بعض عيونه و هو ما ساعده على توسيع منطوقه الشعري.

و يبدو هذا في تأثره بكثير من الشعراء الذي قرأ لهم سواء شعبيين كانوا أو فصحاء فنجد من بين شعراء الجاهلية الذين تأثر بهم الشاعر " امرؤ القيس " و ذلك في القصائد الغزلية التي تتسم بالعفة و يعبر فيها عن الحرمان الذي يعيش فيه يقول:

امجرح قلبي تهـظام اماس اليها طـار بغير جنحا

صار لي ما صار لامرئ القيس من عهد ما كان فصحة

كما تأثر بشاعر الفروسية و الحرب في ساحة الوغى إنه الشاعر عنترة بن شداد، يقول الشاعر محمد بلخير:

الكـلام يوتي لعقاد يوكد وا يوم المشيلة

و الكلام يواتي لجواد ما يديروش الدونيـة

وتأثر بالشعراء الشعبيين أمثال لخضر بالخلوف و بولطباق حيث يقول في قصيدة " المدني زين النور ":

قد مدحك أهل التحقاق بالخلوف مع بو لطباق

كا أنا وياك اتفـاق الموكل ما يكون غرور

كان الشاعر فارسا مغوارا شارك في عدة معارك ضد الاستعمار الفرنسي كثورة أولاد سيد الشيخ (1864 . 1883) و يدل شعره على معاركه و حماسته لها و دعوته إلى الجهاد.

و من هنا كان محط أنظار الاستعمار الفرنسي و عنصرا مهما له، فألقى القبض عليه وزج به في السجن و نفي إلى كالفي بجزيرة كروسيكا سنة 1887 إلى سنة 1895 و يقول عن منفاه يرثى حاله الكئيب:

راني في كالفي مجول أنا و الشيخ بن دوينة مرهونين

فيوك يا خالقي تعول سلاك الحاصلين تفك البحرين

ولم يعمر طويلا بعد عودته لوطنه ليكون تاريخ وفاته سنة 1898 . [4]

دوافع الرفض :

1) الاستعمار الفرنسي :

إن الشاعر محمد بلخير يعد من أكبر المواجهين للاستعمار كما كان في نفس الوقت من أكبر المضطهدين فكان دائما ي يستثمر جل الوسائل لمحاربته و كشف مراميه الطاغية التي أعمت الكثير من بني جنسه و أخذهم شهواتهم و أطماعهم فنسوا شخصيتهم و منشأهم وانضموا تحت راية الظلم واقفين في وجه إخوانهم .

هذا الوحش الضاري الذي فرق بين الأخوان و الأزواج، ويتم الأطفال ورمل النساء و شرد العائلات.

قد بث هذا الإحساس بالظلم ثورة بنفس الشاعر، ورفض بكل معانيه ومراميه نفتولد عنه عنف وجداني و مادي أمام مستبد لا هم له سوى السطو و السلطنة، لا يهمه ما يخلفه وراءه من كوارث ومآتم، و أنهار الدماء ووديان الدموع و مدنا للموتى، ومماليك للأسى و الأحزان.

لكنه قد خلف أنفسا ثائرة انقلب إحساسها بالظلم إلى ثورة عارمة لا هم لها إلا رد حقوقها، و التنعم في أرضها و إن لم يكن فالموت شرف يبتغي و الشهادة أمل يرتجي .

و لم يسلم هذا الشعب الذي ينتمي إليه الشاعر من اضطهاد الاستعمار حتى في المجال الديني فحدت من عمل القاضي المسلم، و لم يتجاوز أحكامه الأحوال الشخصية المحدودة في حين أعطيت كامل الحرية للقاضي الفرنسي، وله مطلق الرأي و الحكم في أي قضية تعرض عليه، و هكذا بقي الشاعر يتألم و يرفض بشدة هذا الوضع الذي أطاح بشخصيته و بكل مبادئها يهون لأجلها كل ثمين ، ولم يكتفي الاستعمار الغاشم بهذا بل زاد تمرده و جبروته إلى حصار للسكان وفرض الإقامة الجبرية حتى أصبح المواطن لا يتنقل من قرية لأخرى إلا بترخيص من طرف الحكومة الفرنسية .

وزادت وطأة الاستعمار مرارة حينما دخل إلى أوساط العائلات، وفرق بين الإخوان مغري إياهم بالأموال الطائلة و الثروة الهائلة، و المناصب السامية من أغوات وبشوات وقد انزاح أليها ذوي النفوس الضعيفة والعقيدة الواهية، فكانت ضربة قاسية على نفس الشاعر و زادت من رفضه لهذا الواقع المعاش تحت حكم جابر، وسياسة دكتاتورية لا هدف له سوى القضاء على الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها و توسيع نطاق حكمها وفرض سياستها بشتى السبل مهما كانت نوعيتها و مهما بلغت شدتها و تعاظمت مبالغها، ما دامت ستجلب المنفعة و تحقق ما فكرت فيه منذ سنين.

فقد كان لزاما على الشاعر أن يثور و يرفض و يبين ما هم في غفلة عنه مبعدا إياهما عن جبنهم و خوفهم الذي أحاط بقلوبهم وغشي أبصارهم فأضحو لا يرون لحقيقة نورا يبصر ولا مسلكا يسلك .

ولا زلنا نرى ظلم الاستعمار وسطوته ولازال الشاعر يعاني مرارة هذا الوضع، وقد كلت نفسه فتقطعت أنفاسه ، فقد قصد الاستعمار الزوايا وعمل على تهديم مبانيها كما فعل بضريح الولي "سيد الشيخ" الذي دمر قبته، ة نجد الشاعر يقول:

يا عيد الفارس حشمتك الخيار واش حال القرمامي رايس القوم

كانك مـن السلطان بشار الشيخ تبنى ولا مـزال مهدوم
ساعة انداروا بالقبـة الكفار دارت العسكر فرق انتاع جحموم
كسروا قنطاس الهمة و لوقار ما بقي واحد في السدات محروم
بعد تهدام القبـة ما بقى عار ما قعد واحد على السلطان مكعوم
بعد هـذا لياش احياة لعمار الي مجاهد فرحت واسرور و انعوم[5]

كانت هذه الأسباب أهم ما جعلت الشاعر محمد بلخير يندفع إلى رفض هذا الاستعمار بقوة، و لن يعرف طريقا للاستسلام و لا يبخل بنفس عن وطنه وأرضه و دينه، حتى يبلغ أمله و يحين أجله.

2) النزعة الصوفية :

قد تأثر الشاعر كثيرا بالولي الصالح سيد الشيخ و الذي أوكل إليه كل همومه ومعاناته في كثير من قصائده يقول:

أنا خديم رحل البيضا زين القباب محبـوب خاطري لبدا متونس به
سيد الشيخ حرمتك ليك هديت انيا ومن قاصد شيخ لازم تبان عليه فضالوا[6]

و نجد التوسل للشيخ و طلب الفرج ما يدل على تأثر الشاعر به و حبه الكبير له و جعله كمؤنس و حافظ و حامي أمين له و لا أحد غيره مؤنس له و مخرجه من عبنه و يأسه و عذابه الشديد الذي يقاسيه فنجده يقول :

سلاك من حصل ساعة حل الركاب و الشيخ وين كان المظلوم يجيه
عيطه شرور سلكني لسقيم بونقاب وين ما انضام العقد يـواليه
هذي فضايل الناس الي هما قطاب و الشيخ نعـرفه ليا و أنا ليه

نراه يواصل في وصف كراماته مضمرا بذلك التوسل إليه و محاولة الخروج مما هو فيه فجعله منارة يغدوا إليها كلما أضلمت حوله المسالك و ساءت المواقف، فترك كل ما حوله و رفض كل ماله صلة بحياته التي لونتها ظروف الاستعمار من جهة والمجتمع من جهة أخرى.

و نراه ينغمس في نزعة دينية فيتحول إلى مناشدة الصحابة الكرام و النبي عليه الصلاة و السلام لعله يجد راحة تخفف أناته وشاطئا يلجأ إليه من أمواج الفساد و البغي التي تعتريه فيقول:

بجـاه حرمة النبي وآليـه سعدي إذا يجيني نفرح لمجيه
بجاه حرمة العشرة لهما صـحاب أهل الجهاد و التوحيد أمواليه
تذهب النصارى يجلو من ذا التراب و تبين العلام الي نزهو فيه
ننصر أعلام محمد ما كيفو أحباب واللي حبيب ربي هو وليه

ضاق الشاعر ضرعا بهذا الواقع المعاش و لا سبيل إلى رده إلا جهاد اتسم بالقوة و الشجاعة، هذا الجهاد الذي كان للنبي الكريم و صحابته الكرماء، فهو الذي يخلص النفوس ويرجع الكرامة .

و يزيد من توسله ليمتد إلى الرسل و الأنبياء فلعل توسله يجد ردا و جوابا فتحقق بذلك أمانيه و يجد في واقعه أمرا يستوجب الحياة و العمل لأجلها فيقول :

بجاه الأربعة غير كتاب حد اكتاب عيسى و سيدنا موسى و نبيه

بجاه ما خلق ربي مرفوع الحجاب وبجاه كل سيد و ملا يكتيه

هذا واللي تبعهم ممنوع من الحساب الي ايطيــع لله ا والديه

و لو تتبعنا أشعاره لوجدنا معظمها تتسم بهذه الصبغة الصوفية و هو أمر فرضه عليه واقعه فلا حول له ولا قوة يلتجئ إليها سوى القوة العظمى و اليد العليا فدعوتها مستجابة و رجاءها محمود.

وهذا ما يؤكد أنه نشأ وسط التعليم الذي كان منتشرا في الزاوية، هو التعليم الذي كان سائدا في تلك الحقبة، خاصة أن الاستعمار الفرنسي قد أغلق المدارس العربية ، وشد الخناق عليها ، كما أن تلك البيئة الصحراوية التي اتسمت بالتطرف الديني ، والتمسك بمبادئه وجعل الشيخ هو مالك كل شيء ، ولا يجوز مخالفته في أي أمر كان ، بل الطاعة واجبة فالرضى رضاه ولا نجاح في الخروج عن مذهبه.

من هنا نرى الشاعر محمد بلخير لا ينفك يبتعد عنه فهو يلازمه في أي قول أو فعل، فقد علم أنه هو المعين له و أنه واسطته عند الله تعالى، دوما يرجو رضاه و حبه يقول:

انا قولي يرضيك ضان على قلبك يرضاني و ما ينساك لساني على سنين و ساير لبلاد

أنا معشوق على محبتك حاجة ما تلهاني و كان عطاك السلطان واش يزيدوا ليك لعباد

ما نقطعش لياس لكان رحل البيضا يرعاني نضحي بين سمحات ساير مع ذاك لميعاد

نلمس هذه العزلة النفسية التي انحاز فيها إلى شيخه، و لا شيء يلهيه عنه، و لازال مديد الأمل مسايرا رفضه كل ما يعارض ظنونه ، حتى و إن كانت لغيره موافقة، إنه سار على هدى تعليمه و ما تمليه طبيعة حياته ، فهو سجين عقيدته و شيخه .

3- الحالة الاجتماعية و النظام القبلي :

إن المجتمع الذي احتضن الشاعر اتسم بالنظام القبلي الذي يخضع لحكم الشيخ أو الزعيم و لكن ما نريد عزله هذه القبيل ة الحكم الاستعماري مما جعل هذه القبائل تفترق و كل يبحث عن مبتغاه فكانت الهجرة إلى البلدان المجاورة أو الانحياز إلى السلطة الفرنسية فتولد عن هذا تفرقة و سوء للحالة الاجتماعية ، و هذا ما انعكس سلبا على حياة الشاعر، فنراه يعود لتوسله بشيخه و يشكيه عذابه ، فيقول :

احنا شعنا في لفام للدنيا مداحك و تفوتني نتمرمد

إنه يفصح عن الحالة الاجتماعية السائدة و ما اعتره من ذل و ظلم فقد تفاقم إحساسه بالظلم و لم يعد يرى لهذا المجتمع ما يجعله يعيش فيه إلا دعوة للتحرر، و رفض للواقع و ثورة لاسترجاع السيادة فكان دوما داعيا للجهاد، مادحا تلك الثورات الشعبية راجيا بذلك تغيير هذه الحالة يقول:

احنا قتلنا كبار الخزيا من سيد احمد خايفة تتراعد

خلطناهم كافر وشاشية تخلاط اغنم كابة للمورد

حكايناهم كيف حك القلية فينا كان كبيرهم متزاهد

ثم يعود للخيانة و عدم الوفاء بالعهد فينبذ السلوك الخائن و يرفض أصوله فلا يسكت و لا يدري بل يواجه و يصرخ :

من سليمان يعطي الجزية حق الي و لي لهيه ايعاند

و الله ما واحد ما مزان هنايا من سليمان خان العاهد

هذا ما يترجم تلك الحروب و المعارك التي كانت قائمة و ذلك التفرق القبلي بين الزعماء ، فكل يحارب لجهة و لكل وجهته ، هو موليها و لكن ما لم تتحد قواهم تحت راية واحدة، فلن تصل أي منها إلى هدف محقق فتنهار قواها و يفقد قوامها يقول :

و العرب ما قعدوش نتاع انقار من عرب حمير و فرسان مخزوم

و الزوى سقامين الخيل لحرار ما عطاو لبوهم ساعة و لا يوم

هذه التفرقة و اختلاف الرؤى لأمر استوجب الرفض الاجتماعي، فكيف له أن يوافق قوما تركو أرضهم و شخصيتهم لمستعمر يستحق الشنق والحرق .

4- المنفى:

إن أصعب شيء يتعرض له المواطن المحب لوطنه و المناضل لأجله هو النفي خارج الديار و النأي به إلى ما وراء البحار تاركا الأسرة و الأحباب، و كل ما هو ساري في دمه منذ نعومة أظافره إلى كمال فتوته وكهولته، فكيف له أن ينسى ماضيه و يترك الهواء الذي تغذت منه نفسه، و التراب الذي امتزج مع طبقات جلده وصوت الجواد الذي كان نغمة ألحانه و أنيس جلساته و الرفيق بساحة الوغى ، يترك الأهل الذين ارتوى بحنانهم و تربي وسط عطفهم، و الأولاد الذين كانوا نورا بعيونه، وأملا لمستقبله و منبعا للسعادة ومنبعا للسعادة و الهناء إنه لموت أعظم من طلق الرصاص ، و ضرب السيف .

قد كان أعظم دافع لرفضه فقد تأذى منه و راح يدعو شيخه كي يفرج عليه و يستغيث به قائلا :

سلاك المغبون من أرض القفار قادر كل اغريب لبلاده تديه

فرج يا ربي على من ضاقت بيه

سلكني من بين سد و صد حجار ايشوف المغبون لكان بعينيه

سلكني من ضيق الدعرى و التزيار قادر نبني الريح و الكاف توطيه

سلكت ابراهيم من لهفات النار بردا و سلام حاجة ما تأذيه

العبد ضعيف ما طايق لضرار هم الحبس زاد هم الضر عليه[7]

إن الشاعر يضع أمام كل سامع فيدفع لحاله، و يرق له قلبه يراه يتمنى رؤية الكون و لو بعينيه ، يعلم بأن الله قادر على كل شيء ، فيعمد إلى ذكر قدرته العظيمة من إحياء للموتى و تحويل النار إلى برد و سلام على إبراهيم عليه السلام، و يزيد توسلا لله تعالى و يقر بضعفه و وهنه فلا طاقة له لمواجهة الأضرار، و يبدو أنه كان مريضا أو بدأ المرض يتسلل إليه مع ذلك الضعف الذي لازمه و هو في سجنه، كما يبدو أنه قد تعرض للتعذيب و هو بسجنه حيث يقول: " هم الحبس و زادهم الضر عليه" و ليس غريبا هذا على مستعمر حرم مواطن من أرضه و أسرته، وكأنه فصل روحه عن جسده، فكيف له أن يعيش و كل شيء في الحياة أصبح له مرار يقول:

الطيب للناس لي راه مرار الشكوة للخلقني لا لغيره

اتعز المذلول و ذل القدار و تنزل من كان مرفوع بجنحيه

سهلي يا خالقي فيما تختار حبس الغربة لا تخلي واحد فيه

سهلي يا خالقي فيما تختار قلبي يبغي غير من البيض ولهيه

نتزه في صحرة بلاد قفار انشوف سيادي أهل النيف ماليه

نلمس هذا التوسل الصادق النابع من قلب قد ضاق بغربة الأوطان و سئم ما هو عليه فيدعو الله بأن يعزه و يرفع من شأنه وبذل أولئك الذين ظنوا بأن لا هازم لهم، و أنهم دائما هم الأعلون، يطلب التسهيل و الرأفة به من سجن الغربة، فالسجن من جهة بظلمته و قسوته و الغربة من جهة أخرى، فكيف يمكن لهذا المخلوق الضعيف أن يتحمل هذه الصعاب و لماذا كل هذا ، لأنه قال كلمة حق و ناشد وطنه و أرضه أيكون جزاءه السجن والمنفى.

قد اشتاق إلى مدينته البيض التي تراوده في يقظته وأحلامه و تلك الصحراء الواسعة، و رمالها الذهبية ، أن كل حبة رمل بها تشهد له بالوطنية و بالوفاء ، و له بها أهلون و أسياد وقفوا معه وشيوخه و الولي سيد الشيخ الذي كان له بمثابة الدافع و المعين له في الحيلة .

إن دوافع الرفض عند الشاعر محمد بلخير تمتاز بالقوة والعزيمة لهذا نجد أن خطابه الشعري مفعما بهذا الرفض و الثورة، فنجد شعراء قبله و بعده تبنوا هذا الرفض و سايروه فأبدعوا فيه ، و نلمس في هذا الرفض سمة غالبة تتميز في إثبات الذات و فرضها و بين موقفه بكل شجاعة و بسالة و لا يخش في الله لومه لائم .

إن هذا الرفض يعتبر حقيقة لكل من عاش تلك الفترة و آنسها بكل جوارحه، و النفس الأبية تأبى الظلم و تحيد عنه و تواجهه بكل ما أوتيت من قوة.

كما نجد الكثير من شعراء الجزائر الذين أحسوا بهذا الظلم و أطلقوا العنان لأقلامهم فيه، و أسكبوا بحور حبرهم رافضين لهذا الظلم والاستبداد فنجد الشاعر احمد سحنون يقول :

قل لابن الاستعمار خلي بلاده العرب لايرضون باستعمار
الذئب لا يرعى القطيع و لم يكن يوما مجبرا للهزيز الضار
من دينه الإسلام يأبي أن يرى أبناءه في ذلة و صغار
من حرر العاني و فك قيوده أيعيش في الدنيا رهين أسرار
من فارس و روم فتح أجداده في داره يمسي غريب الدار[8]

نرى من خلال هذه الأبيات تلك النزعة القومية الرافضة للذل و الهوان و العيش تحت حكم المستعمر فهو عند قوم شرفهم عال ، ومجدهم لا سبيل لنسيانه أو لتحريفه ، فهم أبطال أبناء أبطال .

و نجد شاعر آخر عانى الانحطاط الفكري و بكى لأجله يقول: "سعد الدين حمار" :

يا ناعس الفكر مما قد أحاط بنا أصغ بربك أن القلب نولح
وانظر معي مثل ذي فكر يصرفه شعب الجزائر كيف اغتاله الراح
تبكي الجزائر ما لخنساء على صخر على بنين لقعر الجهل قد طاحوا[9]

إنه رفض و صيحة من الأعماق، رفض للجهل و الظلم و الدعوة للعلم و العدل.

5– البيئة الاجتماعية :

قد عاش الشاعر محمد بلخير في وسط تضاربت فيه الآراء و تشابكت فيه الأحداث، كما نجد بيئة الشاعر التي اتسمت بالقسوة و الصلابة حتى وإن كان لها تأثير ضعيف لكننا نجد للبيئة أثر كبير في نفسية الشاعر ، و هذا ما نلمسه في لغته وأحاسيسه ، تلك هي البيئة الصحراوية التي تتميز بحرارتها المرتفعة ، و برودتها القاسية .

كما أنها تعتبر مكانا يفتقر إلى العلم و ذلك لبعدها عن مواقع العلماء فهذا ما حرم الشاعر من الغوص في بحور العلم و النهل في مواردها و في ذلك يقول :

ما قريت مع الطلبة ابن عشير و لا كتاب ابن خلدون جافي يدي[10]

فهو يؤكد أنه لم يلمس أي كتاب علم، و لكن ما يحمل على الضن إنه و إن لم يقرأ في الكتب فإنه سمع من شيوخ الزاوية التي كان لها أثر كبير في حياته ، أو مما التقى بهم خلال رحلاته المختلفة .

هذه البيئة التي اتسمت بالرحلة المتواصلة و البحث عن موارد العيش إنه لأمر يجعل النفس تعيش حياة مضطربة و لا تألف أي أرض تطؤها فينشأ تداخل في الثقافات أو في أنماط الفكر قد يكون هذا لصالحه في زيادة معلوماته و ثقافته ، و لكن هجران أرض المولد و ترك معالمها لحدث يحمل النفس على عيش جديد و النظر إلى الحياة نظرة تقلب و فقدان للاستقرار الذاتي، خاصة إذا ربطناها بالنظام السائد حينها من غزو استعماري ، و صراع عنيف بين حضارتين، حضارة عربية إسلامية و حضارة نصرانية ظالمة ، فتصبح البيئة نعامتها أرض بلا قاعدة وأمل تتخلله دروب اليأس نهار لا يعلم له ليل ، وليل لا ينتظر له صباح وإن علم جهل مصيره .

و قد لاحظنا أن معظم شعر محمد بلخير كان حماسيا و ثوريا ، ثائر على بيئته و مجتمعه رافض لما آل إليه راغبا في الثورة آملا في التجديد محبا للحرية و الاستقرار .

و نلمس هذه الثورة لدي الشاعر في حماسته التي تجلب فيما أفصح به لسانه و أوغل فيه سيفه و بندقيته و فرسه في ثورات و معارك عديدة أرخ فيها بطولات أعطته و سام الوفاء و الشجاعة و أنصفته رجلا مناضلا محبا و غيورا على وطنه .

من هنا تفجرت قوى ثورته ورفضه لهذه البيئة التي طمست كل جميل بحياته و بحياة كل الجزائريين و خاصة المحبين لوطنهم و لعروبتهم و دينهم ، و هذا ما جعله يلوذ للدين و يستنجد به، فهو عزاءه الوحيد كما يقول د.عبد الله ركيبي : "و الشاعر حين كان يلوذ بالدين في هذه المرحلة [11]والسابقة عليها إنما كان يفعل ذلك للتنفيس عما يحسه من ظلم و استغلال و اضطهاد، إلى جانب أن الدين يمثل العقيدة الروحية الراسخة في وجدانه و وجدان الشعب كله، أضف إلى هذا أن الطرق الدينية لعبت دورا هاما في هذه الرحلة، لهذا كله كادت تختفي أغراض الشعر الأخرى لينحصر في الدين و دواعيه، فأصبح معظمه في المدائح والتصوف – فصيحا أو ملحونا – بينما كانت الظروف في الفترة السابقة قد على انتشار قصائد البطولة و التحريض على الجهاد و مدح انتصارات الأمير والإشادة ببطولته وإن لم تنس فكرة الدين أيضا " [12].

نرى من خلال هذا القول جنوح الشاعر إلى الدين فهو الحامي و الناصر في هذه البيئة التي تلوثت في جراثيم الاستعمار و ما آلت إليه سياسته القمعية و الاستبدادية .

مما زاد رفض الشاعر لتلك البيئة التي اتسمت بالمكر و الخداع مثلما حدث في معركة سيد الشيخ و قاضي البيض عطاء الله الذي كلفته الحكومة الفرنسية بمهمة القضاء على كل ثائر عليها بأنه خارج عن القانون وهذا إبان ثورة بوعمامة (1881 -1883) وثورة المقراني (1871) يقول الشاعر

مقراني نبكي لجراح مهولين بي فرقة وطني وعز لوطان

راني ضروك راس النجوع متنزهين ما قعدو في الذل إلا اصحاب بوران

اللي يبغي الجنة يضاد الكافرين و اللي يبغي الهنى بغى التمزان

قولو لعطاء الله واش كلفك يا حزين ولاه تشمت الي ما لداهم قـران

لعبت بيك الدنيا ايامها فانييـن ما اخيـار أنت و لكلاب رحمان

هكذا حاولت السلطة الفرنسية القضاء على الدين وتشتيت الأهالي وقتل روح المقاومة، لكن الشاعر محمد بلخير وقف وقفة رجل واثب في وجهها ورد لها الصراع صاعين إنه شاعر تشبع بالروح الوطنية و نهل من أصول دينه فهل يركن إلى كافر سافل .

هذه هي بيئة الشاعر محمد بلخير و أهم ما غشاها من اضطرابات و مناوشات عنيفة حملت الشاعر على الرفض والعدوان، هادف إلى تحقيق العدالة و فرض الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية مهما كان الثمن.

6- حب الإصلاح:

إن حياة الفرد وسط محيط لا يتجاوب مع مكوناته النفسية و العقلية لأمر يحتم عليه رفض هذا المحيط، أو محاولة التغير والإصلاح ، و كان لهذا الدافع في حياة الشاعر محمد بلخير، دور كبير حيث جعله هدفه الوحيد لتنظيف هذا المجتمع من كل الجراثيم، التي تحيط به و العمل على إنشاء محيط يعتز بعزته، و يفختر بجزائريته، و يرفرف بعروبته و يسمو بإسلامه

فلطالما ناشد الأمل و أحبه و حارب كل سلوك و فعل يحط من قيمة شعبه، كما حارب تلك السياسات التي حاول الاستعمار الغاشم تسليطها على شعب كان قد رضي ببساطة العيش، تحملها أمواج الهناء، حياة صعبة تخللها سهولة و عذوبة التعاون

قد هم على نشر الإصلاح فنراه يثور على تلك السياسة التي أحاطت بالشخصية العربية و محت حريتها، كما يخاطب أولئك الذين باعوا دينهم ووطنهم مقابل ثمن بخس و لا يعملون أنهم باعوا أنفسهم يقول :

احكام الترك كان صايل باعوا السلام للنصارى في البرين

حكم التتار هم طايـل جاروا اليـهود واندل السكيـن

السارق و الوكيل صايل و اهل السبيل على الخديعة متفقين

وقد نظر للإصلاح من نافذة أخرى فذهب إلى توضيح العلم و الذي يرتقي به الشيخ إلى مشيخته لا ذلك الشيخ الذي ادعى في العلم معرفة، و ما له فيها نبأ يعرف ، يقول:

والشيخ اللي يكون كامل ينظر في البر و البحر شرقي ويمين

والشيخ مذهب الحمايل امضاري ما يغفلش عن طرف العين

فحقيقة العلم تكون بالبحث والتنقيب ، البارز والشامل، وعدم الاكتفاء برغيف و جعله قاعدة، فقد علم شيئا و غابت عنه أشياء إنها نظرية في أسس المنهج العلمي، فسعة المعلومات و تفتح العقل على كل العلوم لأمر يحمل الشيخ أن تكون شيخا ، يسمع له ويقتدي به لا ذلك الذي أطل على العلم ، فادعى فيه فلسفة ، و هو عنه غريب .

و بما أنه قد عد للإصلاح عدته فقد اتجه إلى أهم مقاوماته، فنجده يعود إلى القاعدة و ذلك بتكوين قاعدة صلبة صلابة الدين الإسلامي الذي لا تهزه ريح الكفر، و النفاق ، ما دام التمسك بفرائضه من شهادة و صلاة و توكل على الله تعالى قائم يقول :

اليا تختار في المسايل مفتاح الدين الشهادة
افصيح بلا اكتوب هامل كاللي ساري في حمادة
وليا كان الفقيه عاقل ربي عنده طريق وحدة
الصلاة مع الزكاة امفضل كاللي لابس كسوة جديدة
أو جهاد النفس هو الطايل أو البس امداوتو اشديدة

إذا تمعن القارئ في هذه الأبيات و جد لألفاظها نظريات دينية تعمل على التوجيه و الإرشاد و الإصلاح ، وحمل النفس على حقيقتها، فإن هي صفت و عرفت لها حقا، وأدركت معنى وجودها لرسمت هدفها، و خطت مسارها و سارت عليه بخطى ثابتة، ة لابد لها من يوم إن تصل إلى نصر مبين

ولا زال يواصل دعوته للإصلاح، فيدعو لأهم سبيل في تحقيق الحرية و استرجاع السيادة إنه الجهاد في سبيل الله، فما حاجة المرء لنفس تركن إلى الذل و الهوان و ترضى بأن تكون سلعة رخيصة بأيدي هي أدنى من أن تكون سائدة و مسيرة، يقول :

النفس انهونها مسبل خير من المال و القيادة
و جوادي على الخيو صايل و امعايا كم من حديدة

و قد جاء شعره مفعما بالإصلاح، و هذا ما يناسب فترته، و كما يقال: الشاعر ابن بيئته، يقوم ما اعوج، و يجهز ما سر، و إن لم يكن كذلك فقد خان العهد و ما استحق حقيقة الشاعر،فكيف يروق له الغزل والهزل و هو بوسط نيران لهيبها عم كل ما هو ظاهر وباطن.

قد كان بحق شاعر إصلاح ، و حق له الرفض لمحيط قد تلوثت و زادت كوارثه و أخطاره و لابد من تغييره، و إن لم يكن كان الهلاك مصيره لا ريب فيه .

7- إثبات الذات :

إن كل إنسان مهما كانت طبيعته، يحاول إثبات شخصيته داخل مجتمعه بعمل يقوم به يرفع من مقامه في الحياة، لكننا قد نجد الكثير من يبالغون في هذا الإثبات و يصبح ذلك فرضا عليهم خاصة إن كانوا في عزلة عن مجتمعهم، إو إن المجتمع حاول إقصاءهم و ذلك لعدم تلاؤم طبيعتهم النفسية مع المجتمع الخارجي و عدم مسايرتهم له، كما قد يكون هذا المجتمع فاسدا فلا يعطي للصلحاء مكانا في خليته، و هكذا أصبح لزاما على هؤلاء إثبات الذات و فرضها، رافضين بذلك سبل الحياة السارية .

و هذا ما لمسناه في شعر محمد بلخير، فكثيرا ما وجدناه يفرض ذاته و يعطيها قوة وثباتا كان يفتقدها الكير من زمانه، خاصة إذا ربطنا ذلك بما كان سائدا حينئذ ، يقول:

إنا سيدي زين لقباب بيه اناقر[13] عدياني أو يديه قدام يدي أتحول بين الشفرة و ارتاد

أنا انوري ساس لكلام للفاهم كل معاني بين الشدة و الضيق كاللي ساهي فالتساد

قد وظف الضمير "أنا" الذي يؤكد به حضور الذات و تزداد قوتها عندما يكون معها "الولي سيد الشيخ" فهو القوة المساعدة على قهر الأعداء، و يؤكد بأن مصيبته لن تدوم ، ووقتها قصير ، نلمس هذا التفاؤل و انتظار الفرج و يقينه بأنه منتصر ولو بعد حين .

كما نجده دوما يفسر ما آل إليه و ما فيه هو من الغبن و الحرمان مخبرا الغير عن حاله ، مثبتا لحقه الذي ساد عليه سحاب الظلم يقول :

ما درت الطايحا اهجرت على ليمن ما هي سرقة و لا خديعة

هربت نفسي من النصارى و الشيطان و ارضات لصاحبه الشفاعة

ها هو ذا يسمو بذاته و يعرفنا بها، فهي الطاهرة الصافية ، تركت أماكن الفساد و الخداع و هجرت للأمان و الوفاء، إنها ذات ذاقت حلاوة التضحية و الشهادة ، فأعطت عهدا بمواصلة الجهاد وعدم المثول لقانون الخيانة .

كما نجد للشاعر إثباتا لبيئته و مجتمعه الذي يعيش فيه محققا الذات ، التي طالما عاشت تائهة وسط الأعاصير التي كانت تلزمه ، و محطما تلك الأغلال التي فرضها عليه الاستعمار ، فقاوم كل هذا و أطلق العنان للسانه محتكما إلى نيرة عقله و حكمت الحياة ، فعمل ناصحا و داعيا، و كان يعمد لتأكيد الحقائق و تمحيصها و تبسيطها لأولئك الذين أعماهم الطمع ، وأجبنهم الخوف كي يعرفوا حقوقهم و ينتزعوها من مغتصبيها.

قد كان الناصح والمقوم لمجتمعه فالحكمة و الحق كانا سناما لذاته يقول:

وثلث قضاة قاع يتافقوا عن كرايا حق المسكين غاب واداه اللي بريالو

راها من قوة الدراهم تعواج الآية يدري حقو فلوس وايقول كتبي قالو

نراه ثائرا على الخداع و المكر و الخيانة، قد حق له هذا و هو يمتلك ذاتا أبية، عربية مسلمة، لا ترضى بالذل و لن تصمت له.

و تزيد هذه الذات هيجانا و ثورة على أولئك الذين و قفوا صامتين مسلمين بالواقع، و هم يعرفون أنه الباطل :

أهل السنة ارقود أو أهل البدعة جرايا و الراجل ما ايثيق في خوه و لا في خالو

راهم فالويل قارصين ليا للقطاية حال الرومي أوعاد حال المسلم من حالو

واشتركوا فاللباس سي هو وادواية شربوا من كاس لبسات على الخمر اتوالوا

قلة لكتاف ما لقيت فالناس اهوايا تجعلنا صابرين و ارجال الصبر اينالوا

هكذا كانت ذات الشاعر ثائرة ، تسمع صوتها لكل سامع يقظا أو نائما، تطرح كل آرائها و نظراتها ، تصرح بآمالها وآهاتها لعلها تجد لها سامعا يخشع قلبه و تثور وطنيته و حميته العربية الإسلامية ، فيسعى لتحقيقها و تدمير الواقع المرفوض من طرف كل جزائري .

لهذا نجد معظم أشعاره تضمنت إثباتا للذات من جميع جوانبها وهذا ما يجعله باقيا و محتلا لكثير من صفحات الكتاب و المؤرخين ، و يبقى صورته ، و نداؤه مدويا لتلك الروح القومية التي افتقدها الكثير من مواطنيها ، فأصبحت الأسماء في جهة و الروح و العقيدة في جهة أخرى.

قسم الهوامش :

1– Si Hamza Boubakeur. Trois poèmes Algériennes. Edition, moisonneuse et l'arosse. 199.1 Tome II. P 32.

2 – Ibid. P21.

3 يذكر عبد القادر جغلول في كتابه الإستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر ط1 ، دار الحداثة للطباعة والنشر 1984 ، أنه ولد حوالي 1835.

4- جاء في كتاب – الإستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر– لعبد القادر جغلول أنه توفي نحو 1905.

5- خديجة دحماني :مجلة محمد بلخير ، مكتب حماية التراث الثقافي ، البيض 1989 ص 20.

6- نفسه ص 41.

7- قاضي محمد :الكنز المكنون في الشعر الملحون ، المطبعة الثعالبية الجزائر 1928 ص 177.

8- صالح خرفي :الشعر الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د ط الجزائر ص 70.

9- نفسه ص 28.

10- يقصد بها مرحلة ثورة المقراني 1871.

11- جاء الشطر الثاني من البيت في بعض المراجع **ما شديت ابن خلدون في يدي**

12- د عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث ،الشركة الوطنية للنشر ط 1 ،الجزائر 1981، ص.22

13- اناقر : أواجه وأحارب